يوافقونك على أنه هو البيت الأخير . والقارىء تبادره منه صورة العذراء الحالية ، وهى فى جمال الذعر والدلال ، فيسرى إلى نفسه سرور هذا المنظر الجميل ، ويخلط بين هذا السرور وبين سرور الوصف والمعنى الأصيل . وإنما مثله فى هذه الخديعة مثل من يشترى الجوهر المزيف بثمن الجوهر الصحيح لأنه ينظر على العلبة إلى صورة عذراء فاتنة . فجمال العذراء الذى تعرضه عليه العلبة شىء حسن ، ولكنه إذا حمله على أن يقبل الجوهر المزيف بثمن أعلى من ثمنه المعروف فهو مخدوع فيه ، ومأخوذ بحيلة لا يؤخذ بها لو أنه فرق بين اللباب والغشاء .

والشاعر هنا يحتال مثل هذه الحيلة فى تزييف معناه ، ويشغلنا بصورة العذراء الحالية عن حقيقة الوصف الذى يراد فى هذا المقام . فهو يصف واديا رويا يقى من الرمضاء بنسيمه البليل ومائه العذب ودوحه الظليل ، فلا يكفيه هذا الوصف الذى هو حسب كل محب للطبيعة مشغوف بجمالها الساذج الغنى عن التزويق والتزوير حتى يجعل حصباء الوادى كاللؤلؤ والمرجان ساقطا من عقد نظيم .

ولا يكفيه هذا حتى يكون العقد فى جيد حسناء ، وتكون هذه الحسناء عذراء ، ولا يكفيه هذا حتى يلعب أمامنا لعبته التى تعوزها الأناقة والكياسة ، ويغشنا بها غشا محروما من لباقة الحركة وخفة المداراة ، فنحن أولا لا نعجب بالحصى فى الوادى الظليل لأنه كاللؤلؤ أو المعادن النفيسة ، ولكننا نعجب به إذا استحق الإعجاب لأنه الحصى الذى يحسن فى موضعه . ولو كان أبعد الأشياء عن مشاكلة اللآلىء والمعدن النفيس .

ومع هذا لا نرى ضيرا فى تشبيه الحصى بالدر المنثور ، ولا نريد أن نقول إن الشاعر إنما التفت إلى الحصى هنا ليذكر الدر والعقود لا لأنه أعجب به وتنبه لحسنه ، ورآه وسما متمما لمباسم ذلك الوادى الذى وصف أدواحه وظلاله ، ونعم بمائه وهوائه .

ولا نريد أن نقول إن بعض الشعراء قد جروا على أن يكون كل منظر من المناظر التى يصفونها مشاكلا لشىء من النفائس القيمة والأعلاق الغالية ، فالأرض مسك ، وعنبر ، والحصباء در وجوهر ، والشجر زبرجد ، والماء بلور إلى آخر هذه الأوصاف المحفوظة والأمثال السائرة . لا نريد أن نقول هذا ، ولا نأبى أن يكون الشاعر صادقا فى التفاته إلى الحصى مريدا لذكره ، متعمدا لوصفه .